

684-أنا ماشى "سريع" حوالين نفسي !! (2 من 2)

دراسة فى علم السيكيوباتولوجى (الكتاب الثانى)

الحلقة ١٣



لوحات تشكيلية من العلاج النفسى
شرح على المتن : ديوان أغوار النفس

الفصل الأول: لعبة الكلام

الحالة (1) تكلمة:

أنا ماشى سريع حوالين نفسي (2من2)



نشرنا أمس الجزء الأول من هذه الحالة، وبيننا فيه أن ثمة خدعة قد تتم، عادة دون وعى كامل، وذلك حين نتمور أن "الكلام هو الحل"، سواء استعملنا تعبير "التحليل النفسى"، أم "فك العقد"، أم "أطع لى جوايا"، أم "أفضفض"، ..، وقد بينا - بسخرية قاسية - كيف أن التحليل النفسى قد يستمر سنين ولا يحقق إلا تثبيت ما هو موجود، مع قدر يسير من الرضا به، دون تغيير حقيقى.

في هذه الحلقة سوف نكمل نفس التأكيد على أن مجرد الكلام ، قد يكون وسيلة لتنمية بصيرة معقلنة، ليست أكثر من استبصار ذاتي مع وقف التغيير، مما قد يكون هو السبب في إعاقة النضج

المتن

(3)

أنا ماشى "سريع" حوالين نفسي،

وباصبح زى ما بامسى،

وان كان لازم إني أعدى:

زآح اعدى من شطنى لشطنى،

هوآ ذآ شرطى.

من أبطل الإشاعات التي روج لها بعض ما شاع عن التحليل النفسي، وعموماً، هي مقولة أنه: 'إذا عرف السبب بطل العجب'،

وبالقياس نقول إنه قد يكون باطلاً كذلك قولنا: 'إذا فسّر العرض بطل المرض'،

حتى إذا انتقلت 'المعرفة' إلى 'رؤية' ومواجهة و"انتقلت" الرؤية إلى "كشف" وتعرية أعماق الأعماق ، فإنها وحدها لتكفي للنمو النفسي (التطور لذاتي).

ولكن بما أن الحياة هي الحركة، وبالتالي لا يمكن إيقافها إلا بالموت الجسدي، فإن التوقف عادة لا يكون توقفاً بمعنى الوقوف في الموقع أو اللاحراك، وإنما بمعنى الحركة في الخلق، "ملك سر"، بل أحياناً ما تكون ثمرة حركة نتاجها سلبى، كما سبق أن ذكرنا في "المقدمة" (سرٌّ بضرهك).

ثمرة حركة قد تتم بحماس شديد، لكنها تحمل مقومات إلغاء ناتجها بنفس الحماس، ذلك لأنه قد يثبت أنه حماس مشروط بوقف التنفيذ، المريض هنا، وأحياناً الخلل أو الطبيب قد يعلن القبول - بل وضرورة القبول - بفكرة التغيير، وهو لا يأل جهداً ظاهراً في السير في هذا الاتجاه، لكن يبدو أن المريض عادة ما يفعل ذلك بناءً عن ضمان سرى أنه في النهاية يملك آلية محو كل ما تغير أولاً بأول، ليبدأ من جديد نفس المحاولة وإن تغيرت تفاصيلها، وهو ينتهي إلى نفس النقطة وهكذا، وقد يسمى هذا أحياناً "تكرار النص" repetition of script

إن نظرية الاستعادة recapitulation theory وهي أساس التطور برغم النقد الشديد الذى لقيته وتلقاه مؤخراً، تقول بتكرار النص (الانتوجينا تعيد نص الفيلوجينيا ..إلخ)، لكن التكرار في نظرية الاستعادة لا ينتهي إلى نفس النهاية بعد كل دورة، وإلا مات التطور من بدايته، إن الاستعادة، غير الإعادة، لأنها تنتهي إلى إضافة - مهما كانت

ضئيلة- إلى ما كان عند البدء، أو هي تنتهي في كل دورة في نقطة غير نقطة البدء، أو هي تنتهي بتغير نوعي - مهما كان ضئيلا، لكنه تغير ما، أما إذا انتهت إلى حيث بدأت (موقعا وكما)، وبنفس المواصفات التي بدأت بها (كيفا)، فإنها تكون معطلة للنمو (العلاج)، بل وتكون خدعة مغتربة.

هذا هو الشرط الذي يعلنه المتن هنا، وهو ينطلق من داخل داخل المريض وليس من ظاهر حماسه، "وان كان لازم إني أعدى، راح اعدى من شطى لشطى، هوّا ده شرطى"

طبعا مثل هذا الشرط لا يعلن صراحة، وبالذات لا يعلنه المريض لنفسه، فهو لا يصل إلى وعيه، ولكن على الطبيب أو المحلل أن ينتبه إلى احتمال أن يكون اطمئنان المريض إلى أنه "مهما تحرك، لن يتغير"، هو الذي يدفعه لتجاوب كاذب مع المعالج، لأنه ضامن - في النهاية - أنه في موقعه لا يتزحزح، مهما نشط.

كل هذا يكاد يشير إلى عكس ما يبدو أن المريض جاء من أجله، وكأن هدف المريض الأساسي هو ألا يشفى، فكيف ذلك وهو الذي سعى للعلاج؟ وطلب العون؟ ودفع الثمن (مادة أو وشما أو غير ذلك)؟

هذا كله محتمل أن يكون جانبا من الموقف أو الحقيقة، لكنه ليس كل الحقيقة، هو فقط ينبه إلى أنه ينبغي علينا ألا نستدرج إلى تغير مؤقت نرضى به وهو ليس تغيرا أصلا، وأيضا هو ينبه من جانب آخر، أن نفهم كيف أن الشفاء هو مطلب رائع ظاهر، ولكن وراءه في العمق قرار أسبق هو ما نسميه "اختيار الحل المرضى" وهو اختيار على مستوى آخر من مستويات الوعي، وبالتالي فهو (المريض) في هذا المستوى الأول غير مستعد أن يتنازل عن اختياره الحل المرضى بسهولة، فهو يقاوم كل الضمانات التي تغريه بالتغيير باعتبارها غير مضمونة، ومن ثم التمسك بالتغيير هكذا.

مهمة المعالج هي استيعاب كل ذلك (مع المريض)، واختراقه، فتجاوزه.

'التغيير الكاذب' وارد أيضا، وكثيرا، ونعني به أن نوع الوجود لا يختلف، وحركية النمو لا تنطلق، ولكن يتغير الشكل من الظاهر فحسب، ومثال ذلك

- أن يحل عرض (أخفى) محل عرض (أكثر إزعاجا)، (مثل: أن تحل اللامبالاة الدمثة محل الانفعال الطفلي الفج)
- أو تحل بصرة مزيفة مرضية (أنا فعلا متحوصل حول ذاتي) محل إنكار ما هو كذلك (بالعكس: أنا أحب كل الناس)، ثم لا حراك في الحالين.

كل هذا مجرد إحلال وإبدال وليس تغييرا

كثير من المرضى حين يرون بهذا المأزق يصطنعون (لأنفسهم

وللمعالج وللآخرين) موقفا كأنه التغيير ذاته، ولكنه في الحقيقة خدعة تكشفها ضعف المعاناة، وانتفاء الألم أو الخوف الذى يصاحب البصيرة الفاعلة الموضوعية، وقد يعلن ذلك بألفاظ رنانة، وفرحة تسكينية، وكأن ثم تغيير قد تم بفضل العلاج وحسن النية، لكن اختبار نوعية التحول تثبت أنه تغيير اللون الظاهري كما ذكرنا، أو هو إعادة نفس النص للوصول إلى نقطة نهاية هي هي نقطة البداية.

فهى الدائرة المغلقة برغم كل صخب الحركة الخادعة.

مرة أخرى "راخ عدى من شطى لشطى، هوا دا شرطى".

يا ترى لماذا كل هذه المقاومة ؟

كل هذه الشروط، والمهارب والمناورات إنما تنبع من الخوف الأزل من النقلة النوعية التى هى علامة التطور الحقيقية.

النتقلة فى العلاج النفسى - وأثناء النمو- ليست بالضرورة قفزة فى الخلاء دون تدريب أو إعداد، لكن طالما أنها نوعية بالضرورة، فثم خوف يحيط بها، وثمة جسارة تحتاجها، مهما بلغ الإعداد والاستعداد.

○ ثمَّ خوف بدئى يقال إنه موجود من صدمة الميلاد، منذ الخروج من الرحم إلى الناس.

○ ثمَّ خوف من العودة إلى الرحم دون ناس (الموقف الشيزي)

○ ثمَّ خوف من العلاقة بالآخر (الموضوع) باعتباره مصدر الخطر لأنه مصدر الاختلاف (الموقف البارنوى)

وحين نكبر أكبر، تتربص بنا مخاوف من مقدسات نسعى إليها حثيثا ونحن نخاف منها جدا:

○ ثمَّ خوف من الحرية (إريك فروم) ، حتى لا ندرك مدى مسئوليتنا عن كل ما يصيبنا.

○ ثمَّ خوف من الإيمان (أن نذوب فى الكون دون رجعة)

العلاج النفسى النمائى يضع ذلك كله فى الاعتبار، لا ينكره، ولا يخضع لشروطه أو مبالغاته، وهذا يحتاج من المعالج أن يمارس هو نفسه مواجهة مخاوفه الحقيقية ربما بنفس حجم مخاوف مريضه إن كان صادقا فى محاولة مواصلة نموه.

العلاج النفسى التسكينى أحيانا يكون دوره هو أن يبرر هذا الخوف، ويعترف به ويفسره دون أن يكسره، فيصبح ملطفا لخدمته، ومسكنا لإرغابه.

المتن

(4)

ولقد ما يهدى الموج،

واشترى عوامة واربطها على سارى الخوف،

ياللا نقول "ليه"؟

و"ازائى؟"

"كان إمئى"؟

"يا سلأم"!

"يُبقَى اَنَا مَظْلُومٌ".!!!!

شكر الله سعيك!!

قد يكون من باب احترام الواقع الموضوعى، وضبط الجرعة أن نرضى مرحليا بالعلاج التسكينى، فنسمح للعلاج النفسى أن يقوم بدور المرفأ الذى يلجأ إليه الخائف حتى يهدأ موج التهديد بالغرق فى محيط الجهول، بل قد نرضى أن نوظفه بوعى ليحقق ذلك... (واشترى عوامة واربطها على سارى الخوف)

إذن فهو التأجيل! ليكن.

ولكن...: إلى متى؟

هذا هو فن التطبيب والعلاج.

الحاصل فى أغلب الأحوال (والمخالات) أن يتوقف العلاج عند هذه المرحلة، ليصبح التأجيل المتكرر هو نهاية المطاف، يتم ذلك حين يستدرجنا الكلام إلى الفرحة بالتفسير والتبرير، والرضا بالشفقة (دون التعاطف والمواجدة) وبالدعم الظاهرى، حتى يختفى الخوف، أو يقل، لكن فى نفس الوقت يتم تزيف الحركة أو تنغلق الدائرة.

وسط هذا الإعصار من التهديد بالتغيير، بما يشمل من تضخيم - لا شعورى- فى مخاطر المغامرة به، تمر جلسات العلاج تلو الجلسات فى البحث عن الأسباب وكيفية حدوث ما حدث، خاصة فى فترة الطفولة!!!، مع ما تيسر من علامات التعجب ومظاهر المشاركة،

ياللا نقول "ليه"؟

و"ازائى؟"،

"كان إمئى"؟

"يا سلأم"!

.. وقد يتوقف العلاج عند هذه المرحلة، فيستمر تأجيل التغيير إلى أجل غير مسمى. (ليصبح هذا الأجل غاية الممكن الآن مرة أخرى حركة نشطة، لكن فى الخلل).

لا بد أن نعترف، أن هذه المرحلة (التي لم تعد مرحلة، بل نهاية للمطاف كما ذكرنا)، هى الغالبة فى كثير مما يسمى التحليل النفسى، بل والعلاج النفسى أحيانا،

